تعليم النساء في آثار إمامي جمعية العلماء المسلمين

أ. د. عز الدين كشنيط.

جامعة تمنراست، الجزائر.

ص: 20 - 59

الملخص:

يرصد هذا البحث آراء الإمامين الجليلين ابن باديس والبشير الإبراهيمي - رحمهما الله - في مسألة تعليم المرأة الجزائرية المسلمة، ووسائل تحقيقه، ودورها في تكوين الأجيال، والحفاظ على الهوية العربية والإسلامية؛ وتقويم مسيرة تعليم المرأة في الجزائر الحديثة . وقد انطلقت هذه المقاربة من استقراء آراء هذين العالمين؛ مسترشدة بآثارهما النفيسين؛ لرسم صورة واضحة الملامح، بيّنة القسّمات عن تعليم المرأة، والرد على الشبهات والأباطيل التي صاحبت هذه القضية؛ في ضوء الكتاب والسنة .

الكلمات المفتاحية: جمعية العلماء المسلمين، تعليم المرأة، الاحتلال الفرنسي، الإرشاد، الهوية، علماء الجزائر .

Abstract :

This research evokes the opinion of two famous Algerian erudite : Ibn Badis and El Ibrahimi ; about the subject of teaching the Muslim Algerian women. Exposing the ways and manners to achieve it, for the purpose of preparing the next generation and protecting the Muslim personality.

This approach, then, shows the valuable opinion of this two scholars to show a clear picture about this issue and to replay the suspicions about this matter with arguments from the Quran and the Sunna .

مقدمة:

لم يُحَفَّ على إمامي علماء الجزائر ورائدي نُحَضَّتْها؛ ابن باديس والإبراهيمي ما لتعليم المرأة وثقافتها ووعيتها من آثار عظيمة في نُحُضَةِ الشعوب ويقظتها، وقد حَمَلَتْ آثارهما المطبوعة مادّة علمية قيّمة؛ تصلح مرتكزا صلبا لمن ينبغي تتبُّع الطريق الذي رسمته جمعية علماء الجزائر لنسائها، ورصد منهج إماميها في الأخذ بيدها لإخراجها من هامش النسيان والواقع السيئ الذي كانت تعانيه باسم العفة والدِّين والعادات التقاليد، والدين براء من ذلك كلّه. ولقد كانت لبصيرتهما النَّافذة ونظرتهما الثاقبة أثر جليل على وضع المرأة في زمانهما، وإنقاذها من هامش النسيان، وفنّاد جميع المبررات الواهية التي يلوّكها المترددون في شأن تعليمها، مشيرين إلى أنّ ذلك لا يستند إلى أيّ أساس يصح من عقل أو دين، وأنّ في تعريضها للجهل إهلاكا للأمة، وشلاّ لنصفها وكسراً لجناحها الذي لا يُستغنى عنه في السموّ بالأمة إلى المكانة التي تليق بها.

المحتوى:

وهذه الورقة العلمية محاولة لجمع ما تفرّق من كلام إمامي علماء الجزائر ورئيسي جمعيتهم، في موضوع تعليم النساء في آثارهما المطبوعة، وترتيبها حسب المسائل المتناولة، وصياغتها بشكل موجز ومرتبّ وحسن، مع محاولة استثمارها في علاج الوضع الحالي للمرأة في الجزائر والأمة الإسلامية.

الهدف:

والمقصود من هذا العمل هو إلقاء الضوء على الواقع المخرج الذي انحصرت فيه المرأة المسلمة في مجتمعاتنا المعاصرة، والتي رمت بها تصاريف الزمان بين سندان الأعراف الظالمة الفاسدة، ومطارق الدعوات المعاصرة السائدة، مع فقدانها للبوصلية الهادية، والذي يزيد الطّين بلةً سوء تقدير بعض المعالجين لمشكلتها من المنتسبين لهذا الدين ممن يحمل همّه وهمّ المرأة، فيلزمها بما انتهى إليه فهمه على أنّه دين، وما انتهى إليه فكره على أنّه أمّ الحقائق، والزرائع عنه لا محالة مارق، فهذا البحث يمكن الباحث من الوقوف على مجمل آراء الإمامين ابن باديس والإبراهيمي بخصوص المرأة في مباحث موجزة.

الأهمية: ويستمد موضوعنا هذا أهميته من خلال أمرين:

أحدهما: كونه متعلّقا بالكلام عن نصف مجتمعنا، أو أكثر من نصفه.

وثانيهما: أننا نعالج هذا الموضوع في ظلال السيرة الإصلاحية لإمامين عظيمين أنعم الله بهما على هذا القطر العزيز أحلك أيامه.

والخطير في الأمر أنّه إنّ كان الرّجل يمتلك يوم هذه الأمة وحاضرها، فإننا اليوم بصدد الكلام عن النصف الذي يمتلك غدها، ويحدد مستقبلها.

وقد تناولت فيه عددا وافرا من القضايا، أذكر منها:

سَبْقُ الجمعية في ابتكار طرق تشجيع المرأة على المشاركة فيما لا بدّ منه لنهوض الأمة،

وكلام الإمام ابن باديس في موضوع الخصوصية الوظيفية في تعليم المرأة المسلمة، وأهمية البيئة المنزلية في إيجاد الجيل المطلوب،

ودور تعليم المرأة في تكوين الرجال والحفاظ على الهوية،

والجوانب الخفية من عواقب التقصير في تعليم البنت المسلمة،

والتحقيق في حكم تعليم المرأة،

والتنبية على ضرورة تعليم الرجل لتسهيل تعليم المرأة،

وتقييم الشيخ البشير لمسيرة تعليم المرأة في الجزائر الحديثة،

وبيانه لسبب الإعراض عن تعليمها،

والقصيدة التي أودع فيها مجمل آرائه وأفكاره الإصلاحية بخصوص موضوع تعليم المرأة،

مع تنفيذ ما ينسب للدين من دور في تعطيل ذلك،

مع ذكره عواقب التقصير في تعليمها،

وتحذيره مما يجرّ إليه ذلك من ظاهرة الزواج بالأجنبيات المتعلمات والإعراض عن بنات الأمة،

وكلامه عن أسباب فشل التعليم الفرنسي للجزائريات،

وأسباب التحاقهن بالتعليم الفرنسي،

والردّ على المناوئين لمساعي الجمعية بخصوص هذا الموضوع،

وتفاصيل أخرى في ثنايا البحث، والله الموفق لتمام ذلك.

وقد بسطت الكلام في الموضوع في قسمين،

أحدهما خاصّ بالإمام ابن باديس،

والقسم الثاني خاصّ بالإمام محمد البشير الإبراهيمي،

ونشرت محتوى المادة العلمية تحت رؤوس مواضيع ومسائل تدل عليها عناوينها؛ بقصد

التنبية على فوائدها، ومهماهما. وهذا وقت الشروع في الوفاء بالمقصود، وما توفيقني إلا بالله

عليه توكلت وإليه أنيب.

القسم الأول: الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس وتعليم المرأة:

بداية... يجدر بنا التنبيه على أنه من الصعوبة بمكان التفريق بين سياسة الجمعية وفكر الإمام عبد الحميد ابن باديس بخصوص أكثر المسائل الفكرية المطروحة، وبالخصوص نظرتة تجاه المرأة وقضاياها؛ باعتباره علمها البارز، وقبطان السفينة، وموجه دفتها من جهة، وباعتبار الجمعية هيئة مشكّلة من أفاضل علماء الجزائر، وسياستها وتوجهاتها ملك لجميعهم.

لقد كان تعليم المرأة المسلمة من القضايا الحاضرة في المسيرة الإصلاحية للإمام ابن باديس⁽¹⁾ شأن حضورها في المسار الإصلاحي لجميع الحركات الإصلاحية التي عاصرتة، وسرعان ما طرحت على بساط النقاش في اجتماعات الجمعية ومؤتمراتها، وأخذت مداها على صفحات جرائدها وبياناتها؛ فقد عرضت مسألة تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه في جدول أعمال مؤتمر المعلمين الأحرار، الذي دعا إليه الشيخ في سبتمبر سنة (1356هـ / 1937م)⁽²⁾، وطلب من المعلمين الأحرار تحضير تقرير بخصوص ذلك مسبقاً،

(1) كان لأستاذنا عمار طالبي فضل السبق في طرق هذا الموضوع في مقدمة تحقيقه لآثار الإمام ابن باديس، فيما يقارب الصفحة تحت عنوان (رأي ابن باديس في تعليم المرأة)، وقد أحببت ابتداءً بإيجاز أهم ما ذكره في نقاط، وهي كالآتي:

- بصيرة ابن باديس بما للمرأة من وظيفة اجتماعية تربوية عظيمة.
- إيجابه تعليمها وإنقاذها مما هي فيه من الجهالة العمياء.
- نصيحته بتكوينها تكويناً يقوم على أساس العفة وحسن تدبير المنزل، والنفقة والشفقة على الأولاد، وحسن تربيتهم.
- تحميله مسؤولية جهل المرأة الجزائرية لأولياتها، وللعلماء الذين يجب عليهم أن يعلموا الأمة رجالها ونساءها على السواء، وتحملهم إثم التفريط في هذا الواجب.
- استدلاله على وجوب تعليم المرأة بالأحاديث الشريفة، وبالعمومات القرآنية الكثيرة الشاملة للرجال والنساء، مستدلاً بما أجمع عليه اللغويون والأصوليون من أنّ الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا بمخصص من إجماع أو نص أو ضرورة طبيعية، لأن النساء شقائق الرجال، واستدلاله بدليل تاريخي، وهو ما استفاد في تاريخ الأمة الإسلامية من وجود العلامات الكتابات الكثيرات. ينظر آثار ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت 1359هـ)، تح: د. عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط 1/ (1388 هـ - 1968): 118 / 1.

(2) ينظر المرجع نفسه: 113 / 1.

لمناقشة آرائهم في هذا المؤتمر⁽³⁾، وقد بلغ في باب التشجيع على تعليمها حدّ التفرقة بينها وبين شقيقها الرجل في دفع تكاليف التعليم؛ فكان قانون الجمعية يلزم البنين القادرين على دفع أجر معلوم مقابل تعليمهم، وأما البنات فيتعلمن في مدارس الجمعية كلهن مجاناً!

تشجيع البنت على التعليم:

لا شك أنّ المصلح الفطن لا يترك وسيلة ولا يعدم حيلة في سبيل إنفاذ خططه، قد تنبّهت الجمعية بقيادة شيخها إلى إعفاء البنت من تكاليف التعليم لتشجيعها على الإقبال عليه، وتسهيل الأمر على ذويها، وهو سبق يسجل لها فيما يسمّى هذه الأيام بنظام (الكوطة) في البرلمان العربية هذه الأيام!

قال الإمام في بعض مقالاته: "للجمعية اليوم مكتبها المقام في بناية (الجمعية الخيرية الإسلامية) والتعليم فيه اليوم للبنين وقد عازمت الجمعية على فتح دروس بعد رمضان - إن شاء الله تعالى - لتعليم البنات؛ فندعو إخواننا المسلمين إلى المبادرة بأبنائهم وبناتهم إلى المكتب فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون وأما البنات فيتعلمن كلهن مجاناً لتتكون منهن - بإذن الله - المرأة المسلمة المتعلمة"⁽⁴⁾.

الخصوصية الوظيفية في تعليم المرأة المسلمة:

لم يغفل ابن باديس إبداء رأيه بخصوص الخصوصية التي يميّز به التعليم الخاصّ بالمرأة؛ وهو أمر منطقي وإن أنكره من أنكره، فإنّ الاختلاف النفسي والبيولوجي ينجّر عنه لا محالة اختلاف وظيفي، وذلك ما يتطلّب بالضرورة تعليماً مكوّناً من قسمين أحدهما مشترك بينهما وبين الرجل، والثاني تعليم يخصها دون الرجل، وهو مبدأ معمول به في جميع الأمم، وإنّ تنكّرت له بعض الأفكار في الحضارة الغربية الحديثة.

⁽³⁾ ينظر المرجع نفسه: 3 / 238.

⁽⁴⁾ المرجع نفسه: 3 / 186.

يقول الشيخ عبد الحميد ابن باديس عن المرأة: "خلقت لحفظ النسل، وتربية الإنسان في أضعف أطواره (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) فهي ربة البيت وراعيتها والمضطرة بمقتضى هذه الحلقة للقيام به؛ فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها، ونربّيها على الأخلاق النسويّة التي تكون بها المرأة امرأة؛ لا نصف رجل ونصف امرأة؛ فالتّي تلد لنا رجلا يطير خير من التي تطير بنفسها" (5).

ونحن نسأل - في هذا المقام - بعض من يتهمّ من هذا الاختصاص الوظيفي ممن تشرب فكر الغرب، فنقول: لماذا لا يزال الغريون يفرّقون بين الرجل والمرأة في المنافسات الرياضية؟!، ولن نحتاج إلى سماع جواب منهم أبدا، فإنّ الفطرة والحلقة تجبرناهم على ذلك. لقد تناول الشيخ ابن باديس قضية الاختصاص الوظيفي للمرأة بما يناسب تكوينها إشارة أحيانا وتصريحا في بعض المواضع، من أبرزها تناوله مسألة ولاية المرأة الملك، فذكر عدم أهليتها لذلك؛ معلّلا ذلك بأسباب خلقية ونفسية؛ وتسبّب ذلك في إخلالها بما أنيط بها من تربية الناشئة، وهيئة جيل مستقبل الأمة، وهي وظيفة لا يقوى عليها غيرها.

قال: "لا تصلح المرأة للولاية من ناحية خلقتها النفسية، فقد أعطيت من الرقة والعطف والرأفة ما أضعف فيها الحزم والصرامة اللازمين للولاية. وفي اشتغالها بالولاية إخلال بوظيفتها الطبيعية الاجتماعية التي لا يقوم مقامها فيها سواها وهي القيام على مملكة البيت، وتدبير شؤونه، وحفظ النسل، بالاعتناء بالحمل والولادة وتربية الأولاد" (6).

(5) المرجع نفسه: 469/3.

(6) تفسير ابن باديس (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت1359هـ)، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط1/1416هـ - 1995م: ص273؛ ذكر ذلك في سياق كلامه عن تفسير قوله تعالى (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ) [النمل: من الآية 23].

ودعم مذهب ذلك بما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: « لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمْرُهُمْ امْرَأَةً »⁽⁷⁾، حينما بلغه أن الفرس ملكوا عليهم امرأة، قال ابن باديس: "فاقتضى هذا ألا تلي المرأة ولاية ولا إمارة ولا قضاء"؛ وهو الذي تؤيده السنة العملية، وهو مذهب جمهور أئمة الإسلام⁽⁸⁾.

ودفع اعتراض من قال بأن التاريخ يشهد بازدهار بعض الممالك التي تولت الملك فيها امرأة، بأن المقصود من الحديث هو الفلاح بمعناه الشرعي؛ وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة، وازدهار الملك لا يستلزم أن يكون القوم في مرضاة الله تعالى، قال: "ومن لم يكن في طاعة الله فليس من المفلحين، ولو كان في أحسن حال فيما يبدو من أمر ديناه، على أن أكثر من ولوا أمرهم امرأة من الأمم إذا قابلهم مثلهم، كانت عاقبتهم أن يغلبوا"⁽⁹⁾.

أهمية البيئة المنزلية في إيجاد الجيل المطلوب:

هي قضية نبّه عليها الشيخ ابن باديس في ثنايا ترجمته للإمام محمد رشيد رضا فقال: "البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال. وتدبُّن الأمّ هو أساس حفظ الدين والخلق. والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن، والسيد رشيد كانت متانة خلقه وقوة دينه من أثر أمه التي كانت - كما قال هو - على جانب عظيم من الدين مع العلم الكافي لمثلها، وليئة بيته"⁽¹⁰⁾.

لقد أرجع الضعف الذي تجده الأمة في كثير من رجالها إلى التقصير في إيجاد بيئة منزلية مؤهلة مساعدة على تهيئة الناشئة للإفادة من التعليم الذي يتلقونه لاحقاً.

⁽⁷⁾ الحديث في صحيح البخاري وغيره: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 1/1422 هـ: 8/6.

⁽⁸⁾ ينظر تفسير ابن باديس (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير): ص 273.

⁽⁹⁾ المرجع نفسه: ص 274.

⁽¹⁰⁾ آثار ابن باديس: 4/201.

دور تعليم المرأة في تكوين الرجال والحفاظ على الهوية:

يرى الإمام ابن باديس بأنّ الاستثمار في المرأة الجزائرية والعناية بدينها ولغتها وقوميتها هو سبيل الوصول إلى الجيل الذي المطلوب؛ فعلياً أن نعرفها بتل الحقائق لتلد لنا أولاداً منا ولنا، يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية، جيل لا ينكر لأصله وإن أنكره العالم بأسره، ولا يتنكر لأمته ولو تنكّر له الناس أجمعون؛ والطريق الموصل إلى جميع ذلك هو "تعليم البنات تعليماً يناسب خلقتهن ودينهن وقوميتهن"⁽¹¹⁾.

وقال في موضع آخر: "فإذا أردنا أن نكون رجالاً فعلياً أن نكون أمهات دينيات ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليماً دينياً وتربيتهن تربية إسلامية وإذا تركناهن على ما هن عليه من الجهل بالدين فمحال أن نرجو منهن أن يكونن لنا عظماء الرجال"⁽¹²⁾.

الجانب الآخر من عواقب التقصير في تعليم البنت المسلمة:

أشار ابن باديس إلى الجانب الآخر من عواقب التقصير في تعليم البنت المسلمة، وهو توجيهها إلى التعلّم على يد أعداء حضارتها، فسعيها للتعلّم حاصلٌ لا محالة، (إِنَّ لَمْ يَكُنْ عَنْكَ فَعَنْ قَوْمٍ أُخَرَ) كما قال الإبراهيمي - كما سيأتي - ولا بديل لها في تلك البيئة إلا التعلّم على يد المحتل الفرنسي، فتكون في حالتها تلك كالمستجير من رمضاء الجهل بنار المستعمر، وتعود وبالاً على قومها، وحرباً على أهلها ودينها.

قال ابن باديس: "وشرٌّ من تركهن جاهلات بالدين إلقاءهن حيث يربين تربية تنفرهن من الدين أو تحقره في أعينهن فيصبحن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهن ولأن تكون الأم جاهلة بالدين محبة له بالفطرة تلد للأمة من يمكن تعليمه وتداركه خيرٌ بكثير من أن تكون محتقرة للدين تلد على الأمة من يكون بلاء عليها وحرباً لدينها. فنوع تعليم البنات هو دليل من سيتكوّن من أجيال الأمة في مستقبلها، وقد تفتنت لهذا بعض الأمم المالكة لزام غيرها فأخذت تعلم بناتهم تعليماً يوافق غايتها، فمن الواجب علينا - ولنا كل الحق في المحافظة على

(11) المرجع نفسه: 3/ 469.

(12) المرجع نفسه: 4/ 201.

ديننا ومقوماتنا- أن نعنى بتعليم بناتنا تعليماً يحفظ علينا مستقبلنا ويكون لنا الرجال العظماء والنساء العظيمات، وإلا فالمستقبل ليس كالماضي فقط بل شر منه لا قدر الله" (13).

وقال في موضع آخر: "فالجاهلة التي تلد أبناءاً للأمة يعرفونها مثل أمهاتنا- عليهن الرحمة- خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها، تعليم كل واحد لأهله بما عنده من علم. ويوم نسلك هذا الطريق في تعليم المرأة، والطريق السابق في تعليم الرجل سلوكاً جدياً نكون- بإذن الله- قد نخصنا بهما نهضة صحيحة نرجو من ورائها كل خير وكمال" (14).

ابن باديس وحكم تعليم المرأة:

قضية تناولها الإمام ابن باديس بالكلام في ثنايا شرحه لحديث الشفاء بنت عبد الله قالت: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: «أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ زُفْيَةَ التَّمَلَةَ كَمَا عَلَّمْتَهَا الْكِتَابَةَ» (15).

فذكر من فوائد الحديث "حثّ العارف بشيء مما يحتاج إليه الناس أن ينشره بينهم ويعلمهم إياه" (16) ثم قال: "وفيه تعليم النساء الكتابة؛ واستدل به على ذلك جماعة من الأئمة منهم الخطابي في شارح السنن، وصاحب المنتقى" (17).

غير أنه رأى أنّ الأدلة العامة أقوى منه في الاستدلال على هذا الحكم فقال: "وأقوى منه في الاستدلال العمومات القرآنية المتكاثرة الشاملة للرجال والنساء، فإن مذهب الجماهير -وهو المذهب الحق- أن الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا بمخصص يخرجهن من نص أو إجماع أو بضرورة طبيعية؛ لأن النساء شقائق الرجال في التكليف، ولا

(13) المرجع نفسه: 4/ 201.

(14) المرجع نفسه: 3/ 470.

(15) رواه أبو داود في سننه، وقال الشيخ الألباني (صحيح). سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، وعليه تعليقات كمال يوسف الخوت، والأحاديث مزيلة بأحكام الألباني عليها: 2/ 403.

(16) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، عبد الحميد محمد بن باديس (ت 1359هـ)، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1، 1403هـ - 1983م: ص 158.

(17) المرجع نفسه: ص 158.

خلاف في أنه إذا اجتمع النساء والرجال، ورد الخطاب أو الخبر مذكرا على طريقة التغليب⁽¹⁸⁾.

فهو وأكثر العلماء يعدون حديث (النساء شقائق الرجال) أصلا يتساوى فيه الرجال والنساء في التكليف، فإذا اختلف الحكم بينهما تبعا لما اختص به أحدهما عن الآخر، وقع التخصيص، ولما لم يقع من الشارع الحكيم تخصيص في المسألة فإنّ خطاب الشارع للمكلفين بوجوب التعلّم يعمّهما.

قال الإمام: "إنّ مذهب الجماهير وهو المذهب الحق أن الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا بمخصص يخرجهن من نص أو إجماع أو بضرورة طبيعية؛ لأن النساء شقائق الرجال في التكليف، ولا خلاف في أنه إذا اجتمع النساء والرجال، ورد الخطاب أو الخبر مذكرا على طريقة التغليب⁽¹⁹⁾.

قال الإمام: "وجاء ذلك كله على الخطاب العام الشامل للنساء بثموله للرجال، والعمومات إذا تكاثرت أفادت القطع ولهذا جعلنا هذا الطريق من الاستدلال أقوى من الاستدلال بالحديث الذي هو خير آحاد وخير الآحاد- من حيث ذاته- يفيد الظن وإن كان صحيحا. وحيث تواردت تلك العمومات وثبت هذا الحديث فقد بلغ الدليل بنصه وقطعيته غاية القوة والبيان⁽²⁰⁾.

ثمّ إنّ الدعوة إلى العلم دعوة إلى إتيان أسبابها ووسائلها ومستلزماتها؛ قال: "وكل آية دعت للعلم، قد دعت للكتابة لأن الله قد بين لنا أنه علم بالقلم ليبين لنا أن القلم هو طريق العلم وآلة حفظه وتدوينه، وأقسم بالقلم تنويرها بشأنه⁽²¹⁾.

(18) المرجع نفسه: ص 158-159.

(19) المرجع نفسه: ص 158-159.

(20) المرجع نفسه: ص 159.

(21) المرجع نفسه: ص 159.

ثمّ دعا على إثر ما ذكر إلى الاقتداء بمن سلف من خيار نساء هذه الأمة ومعلميها؛ قال: "فاستنادا إلى هذه الأدلة، وسيراً على ما استفاض في تاريخ الأمة، من العالمات الكاتبات الكثيرات- علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا، على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة. وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللاتقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم"⁽²²⁾.

حقّ أخوتها للذكّر وشراكتها الاجتماعية:

إنّ المرأة شقيقة الرجل وأخته، وهي أخوة تقتضي لها حقوقاً مماثلة، ولا تُسلب شيئاً من تلك الحقوق إلاّ بدليل محصص، ذلك مقتضى قول النبي ﷺ: "النساء شقائق الرجال" ومقتضى قوله تعالى: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)،

قال الشيخ ابن باديس معلقاً على هذه الآية: "فعلينا أن نعلمها ما تكون به مسلمة، ونعرفها من طريق الدين ما لها وما عليها ونفقهها..."⁽²³⁾.

لقد خصّص ابن باديس لتلك الشراكة مواضع عالج فيها ذلك القصور في فهم مقتضياتها، من ذلك قوله -في ثنايا كلامه عن التأسيس الشرعي والتكويني لها-: "إنّ العناية بالرجل تستلزم العناية بالمرأة شقيقته في الخلقة والتكليف وشريكته في البيت والحياة، هما زوجان متلازمان لا تكمل الوحدة البشرية إلاّ بكاملهما"⁽²⁴⁾.

دليل الحسّ والعقل:

وأعطى لتلك الشراكة الاجتماعية الضرورية حكم ما لمثيلاتها في عالم المكونات، قال: "وما الوحدة البشرية في ضرورة الزوجين لتكوينها إلاّ كسائر المخلوقات الساري عليهما قانون الزوجية العام... ويعم هذا القانون جميع المخلوقات ومنها الإنسان"⁽²⁵⁾.

(22) المرجع نفسه: ص 159.

(23) آثار ابن باديس: 469/3.

(24) المرجع نفسه: 467/3.

(25) المرجع نفسه: 467/3.

ثمّ علّق على ذلك بقوله: "هذا دليل الخلق على ما بين الرجل والمرأة من لحمة اتصال، وما لكل واحد منهما على الآخر من توقف لبلوغ الكمال"⁽²⁶⁾.

دليل الشرع:

تلك أدلة ابن باديس لما تفيده تلك الزوجية التكوينية وما يترتب عن ذلك التلازم والتناظر من مساواة في الحقوق، أما أدلة الشرع على ذلك فذكر فيه آيات، هي قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)،

وقوله: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)،

وقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ)،

وقوله: (هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ لَهُنَّ).⁽²⁷⁾

كلّ ذلك ليعقّب بعدها على تلك المساواة بما يخرج عنها مما تقتضيه الفطرة ويشهد عليه الدين ووقائع التاريخ، فيقول بأثما -على ما بينهما من التشارك والتلازم والاتصال-: "فإنه المقدم عليها، والقيوم على شأنها، والمسؤول عن إنحاضها؛ تشهد بهذا الفطرة الظاهرة في ضعف خلقها، والتاريخ البشري بما فيه من مدنيات قديمة وحديثة كلها قامت على كواهل الرجال. ويشهد به الدين في قوله تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)"⁽²⁸⁾.

ضرورة تعليم الرجل لتسهيل تعليم المرأة:

لقد كان ابن باديس في موقف لا يُحسد عليه البتة!...

ذلك أنّه كان يحمل شعار تعليم المرأة بين جيل تفوح الأمية من جميع جوانبه، رجاله قبل نساءه، ولم يكن لدعوته أن تجد ما يأمله من القبول لدى رجال غلبت عليهم الأمية، والناس أعداء ما جهلوا.

⁽²⁶⁾ المرجع نفسه: 467/3.

⁽²⁷⁾ ينظر المرجع نفسه: 467/3.

⁽²⁸⁾ المرجع نفسه: 468/3.

يذكر ابن باديس في مقدّم كلامه عن كيفية اختياره موضوع محاضرة عن (الرجل الجزائري المسلم)، أنّه وقع في فكره أولاً أنّ يقدم محاضرة عن المرأة وحالتها وواجباتها وحقوقها، ثمّ عرضت له العوائق التي يمكن أن تحول دون نجاح المحاضرة.

وقد صور الشيخ تلك العوائق في أسلوب أدبي بديع؛ إذ تخيّل المخاطب رجلاً جزائرياً مسلماً بلباسه التقليدي يعترض عليه قائلاً: "أنتم تفكرون في تعليم المرأة فلمن تعلمونها؟ لي أنا الرجل الجاهل؟ ليقع لها ما يقع للعالم الضعيف المغلوب من الجاهل القوي الغالب.

ومن يعلمها؟ أنا الجاهل! كيف أترك نفسي وأعلمها؟

أنتم تفكرون في نزع حجابها وخلطها بالمجتمعات!

ألا تخافون عليها غيرتي؟

فلأقاتلن عليها!

ألا تخافون إغارتي؟

فلأضايقنهن، ولترين مني كلّ أنواع التعدي والأذى.

إذا أردتم التفكير الصحيح والإصلاح المنتج ففكروا فيّ قبلها، فأنا أبوها، وزوجها،

ووليها، ومصدر خيرها وشرها.

وإذا أردتم إصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب

الستر عن وجهها؛ فإنّ حجاب الجهل هو الذي أحرها.

وأما حجاب الستر فإنه ما ضرها في زمان تقدمها، فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة

وبنات بجاية مكاناً عالياً في العلم وهن متحجبات.

فليت شعري ما الذي يدعوكم اليوم إلى الكلام في كشف الوجوه قبل كل شيء...!

فأمام هذا الرجل الخيالي المرعب وحججه الدامغة ما وسعني إلا العدول عن التفكير

في المرأة إلى التفكير في الرجل، فاخترت موضوع المقالة: (الرجل المسلم الجزائري)"⁽²⁹⁾.

(29) المرجع نفسه: 465-464/3.

القسم الثاني: الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي وتعليم المرأة:

بعد تتبعي لكثير من كلام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بخصوص مسألة تعليم المرأة؛ رأيت أنه جمع شتات ذلك كله في أرجوزة بديعة، لذلك استحسنت الانطلاق منها في بسط آرائه في الموضوع، موردا ما يتصل من أبحاثها بالمواضيع التي سأطرحها، مع إضافة ما لم تتناوله القصيدة من ذلك، وسوف أثبت القصيدة كاملة في ذيل البحث لمن أراد الاطلاع عليها والإفادة منها، ولا بأس من الولوج إلى الموضوع بتقرير إبراهيمي شائق عن موقف الجمعية من تعليم المرأة، وإنجازاتها فيه، باعتباره أحد المعنيين بذلك الإنجاز، والمخططين له.

تقييمه لمسيرة تعليم المرأة في الجزائر الحديثة:

تكلم الإبراهيمي عن تاريخ المرأة الجزائرية في مسيرة التعليم؛ فقسّمه إلى مراحل ثلاثة، أرجع بداية المرحلة الأولى إلى ما قبل سنة 1910، قبل السماح لبعض الجزائريات بارتياح المدارس الفرنسية، وقد كانت البنت -في تلك الفترة- تتلقى تعليماً تقليدياً، لا يجاوز في كثير من أحواله أن يكون محو أمية فضلاً على أن يُسمى تعليماً؛ قال الإبراهيمي: "كانت المرأة المسلمة في الجزائر إلى عهد قريب، لا يجاوز أربعين سنة، محرومة من كل ما يسمّى تعليماً إلا شيئاً من القرآن يؤدي إلى معرفة القراءة والكتابة البسيطة، وهذا النوع على تفاهته خاص ببعض بيوت العلم، ولا يجاوزون بالبنت فيه الثانية عشرة من عمرها. هذه هي الحالة السائدة في الجزائر منذ قرون وتشاركها فيها جميع الأقطار الإسلامية على تفاوت بسيط بينها"⁽³⁰⁾

ثم تلا ذلك مرحلة أخرى أطلق عليها تسمية الفجر الكاذب لتعليم المرأة في الجزائر، وقد أسماه كذلك لقلّة جدواه، ولعدد من المسوغات الأخرى، ذكر منها؛ كونه باللغة الفرنسية؛ وكونه يقف بهنّ في المستوى الابتدائي، وقليل منهنّ من وصل بها المرحلة الثانوية، وأما ما وراء ذلك فنادر، وزاد على ذلك أنّ أكثر تلك المتعلّمات لا تستثمره بل تلزم بيتها بعد ذلك، ولا تفيد منه الأمة في شيء.

(30) آثار الشيخ الإبراهيمي: 4 / 265-266.

وذكر أنّ الذي أحرها في هذا الميدان لا يرجع إلى فقر في ملكة الذكاء، وإنما هي عوامل اجتماعية ودينية ما زال لها شأن عظيم في المجتمع الجزائري⁽³¹⁾.

ثمّ تكلم عن مرحلة ثالثة أسماها فجرا صادقا؛ وهي الفترة التي قضتها الجمعية في الاشتغال بهذا الموضوع، قال: "أما الفجر الصادق لتعليم الفتاة الجزائرية فهو يبتدئ من سنة 1931، أي منذ اثنتين وعشرين سنة يوم تكوّنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لإحياء العروبة والإسلام بالقطر الجزائري ومغالبة الاستعمار عليهما، وخطت خطواتها المشكورة في التعليم العربي الإسلامي على نظم عصرية.. ولهم اليوم نحو مئة وخمسون مدرسة عربية حرة تحتوي على نحو خمسين ألف تلميذ من بنين وبنات، ولهم معهد ثانوي يحتوي على ألف وخمسة تلميذ، وقد رأينا نتاجه في القاهرة فرأينا آثار الحزم والجرأة والإخلاص..."⁽³²⁾.

يقول الشيخ الإبراهيمي: "كان الجمود واقفاً في سبيل المرأة ومانعاً من تعليمها، فجاءت جمعية العلماء وأذابت الجمود، وكسرت السدود، وأخرجت المرأة من سجن الجهل إلى فضاء العلم؛ في دائرة التربية الإسلامية، والمنزلة التي وضعت المرأة فيها، والجمعية تبني أمرها على حقيقة؛ وهي أن الأمة كالطائرة لا تطير إلا بجناحين، وجناحها هما الرجل والمرأة. فالأمة التي تخصّ الذكر بالتعليم تريد أن تطير بجناح واحد، فهي واقعة لا محالة، وجمعية العلماء حولت موقفة في هذا الميدان، فالنساء أصبحن يشهدن دروساً خاصةً بهمّ في الوعظ والإرشاد ويفهمن ما للمرأة وما عليها، وشهد الرجال بتبدّل الحال، وظهور النتائج في المحافظة على العرض والمال، وفي إحسان تدبير المنزل وتربية الولد، وفي مدارس جمعية العلماء نحو ثلاثة عشر ألف بنت، يشاركن الأولاد في السنوات الثلاث الأولى

⁽³¹⁾ ينظر المرجع نفسه: 4/ 264-265.

⁽³²⁾ المرجع نفسه: 4/ 266.

من المرحلة الابتدائية، ثم ينفردن ببرنامج محكم، وينعزلن في صفوف خاصة، مع الشدّة في التربية الإسلامية، والدقة في المراقبة⁽³³⁾.

بيانه لسبب الإعراض عن تعليم المرأة الجزائرية:

تناول الإبراهيمي تفسير سبب تردّي المرأة في تعليمها وأرجعه إلى إكراهات اجتماعية، وفهم خاطئ للدين، وهو الأخطر، يقول في ذلك: "والسبب في هذه الحالة نزعة قديمة خاطئة راجت بين المسلمين وهي أن تعليم البنت مفسدة لها، ويلوك أصحاب هذه النزعة آثارًا مقطوعة الأسانيد، مخالفة لمقاصد الشريعة العامة وتربية محمد ﷺ العملية لنسائه ونساء المسلمين العالمات، ثم يؤيدون تلك الآثار الضعيفة الإسناد بأقوال الشعراء الذين يستمدّون شعورهم من شريعة العواطف المتباينة، لا من شريعة الله الجامعة، ومتى كان الشعراء مصدر فتوى في الدين؟

هذه هي علة العلل في الحالة التي أفضت بالمرأة المسلمة إلى هذه الدرجة التي ما زالت عقابيلها سارية في المجتمع الإسلامي، وما زالت لطخة عار فيه،..."⁽³⁴⁾

ولقد أجاد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في تلخيص وجهة نظره حيال الموضوع في أرجوزة بديعة، أجبرتني بملاحظتها أن أتخذها أساسا أنطلق منه للكشف عن مذهبه في مسألة تعليم المرأة، معقبا عليها بالمنتور من كلامه في الموضوع إن وجد، أو بما فهمته من صريح عباراتها أو خفي إشارتها، مما يناسب أبيات القصيدة، على أن أورد نصها بالكامل في مؤخر الكتاب، لمن يرغب في حفظها، أو الإفادة منها في صورتها التامة.

⁽³³⁾ من مذكرة قدّمتها الإبراهيمي لوزارة المعارف المصرية ولمشيخة الأزهر الشريف وللأمانة العامة لجامعة الدول العربية في يناير 1953. آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي (ت1385هـ)، جمع وتقسّم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1/1997: 170/4.

⁽³⁴⁾ من كلام الإبراهيمي بتصرف. ينظر المرجع نفسه: 264/4.

بين يدي القصيدة⁽³⁵⁾:

هي قصيدة أرسل بها العلامة محمد البشير الإبراهيمي لصديقه الشيخ محمد بن ابراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي المملكة العربية السعودية⁽³⁶⁾، في محاولة لتحفيزه على سدّ ثغرة في الحركة الإصلاحية التي قادها جدّه في الجزيرة العربية، وثني مشايخها عن موقفهم تجاه تعليم المرأة، وهي نصيحة محبّ مشفق، أراد بها الكمال لهذه الحركة، وهو الذي تأثر بكثير من مبادئها، وتعاطف مع أعلامها، غيرة على سمعتها وسيرتها وفكرها، وقد صرّح بشيء من ذلك في مطلع هذه القصيدة فقال:

وَكُنْتُ نَجْدِيَّ الْهَوَى مِنْ الصَّغَرُ *** أَهِيْمُ فِي بَدْرِ الدُّجَى إِذَا سَفَرُ

قال عنها نجله أحمد طالب الإبراهيمي وهو جامع آثار الشيخ: "أرجوزة موجهة لبعض علماء نجد، استنهاضاً لهم على تعليم البنت، واستثلاً لقلوبهم حتى تقبل بهذا الأمر (المنكر) في رأيهم"⁽³⁷⁾.

لقد كانت قضية تعليم المرأة أيامئذ من القضايا الفكرية التي طالها النقاش، وتناولتها الحركات الإصلاحية بالنقد والتحليل في مقابل آراء المحافظين الذين كانوا يخشون من عاقبة الوخيمة، وقد أثار الموقف الرسمي للدولة من تعليم المرأة في المملكة تعليماً نظامياً حفيظة وعتب الشيخ الإبراهيمي وغيره، فدوّن هذه القصيدة لبعض مشايخ المملكة دجّحاً بالإشادة بالنزعة السلفية التي اصطبغت بها دعوتهم المباركة، وميله إلى مبادئها الإصلاحية، ثمّ ضمّنها فيها عتبا جميلاً بخصوص موقفهم من تعليم المرأة.

والحقّ أنّ موقف مشايخ المملكة وحكامها - على ما يظهر فيه من قصور في النظر - كان له ما يبرره حينها، فإنّ التعليم المختلط في غالبه في كثير من البلدان التي كان ينادي به

⁽³⁵⁾ القصيدة بنماها في الجزء الرابع (ص: 131-134) من آثار الإمام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي وسأستغني بهذه الإحالة عن تكرار توثيق مواضع أبياتها التي سأوردها لاحقاً.

⁽³⁶⁾ قال في قصيدته بعد ذكر الجدّ والشيخ عبد اللطيف ومآثرهما: ((وَإِنَّ أَخْفَادَ الْإِمَامِ) لَزُمَرُ ... (مُحَمَّدٌ) مِنْ بَيْنِهِمْ خَادِي الزُّمَرُ))، وللإبراهيمي مراسلات أخرى مع هذا الشيخ، مثبتة في آثاره.

⁽³⁷⁾ آثار الإبراهيمي: هامش 131/4.

مصلحيه، أثار حفيظة كثير من مشايخ هذه المملكة ذات النزعة السلفية المحافظة، ولم تكن لديها الآليات المناسبة لاستكمال ذلك الجانب الإصلاحي؛ فلما نضجت الفكرة في ذهن مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في عام 1379 هـ تقدم بمشروع بخصوص ذلك للملك سعود بافتتاح مدارس البنات في مدن المملكة في عام 1380 هـ، وصدر بذلك مرسوم ملكي، مع ضمانات خلو التعليم من مفسدة الاختلاط وتوابعها، مع الإشراف الخاص لمفتي المملكة⁽³⁸⁾، ولا أستبعد أن تكون هذه القصيدة هي أقوى أسباب ذلك العدول ومحفزاته.

حق أخوتها للذكر:

النساء شقائق الرجال ... فلماذا التفريق بينما في التعليم والتربية، ولم الحرص على تعليم الذكر دونها، من هنا جاء نداء الشيخ الإبراهيمي مفعما بالحنان والعاطفة الأبوية الجياشة، ليقول لمن ملك أمرها:

... لا تَنسَ (حَوًّا) إِنَّهَا أُخْتُ الذَّكَرِ

فإن لها نفس قابلية شقيقها الذكر من فعل الخير أو اجتراح السيئات، يصدر عنها مثل ما يصدر عنه من حلو ومرّ؛ (تَحْمِلُ مَا يَحْمِلُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ *** تُثْمِرُ مَا يُثْمِرُ مِنْ حُلُوٍّ وَمُرٍّ)؛ وذلك مرهون بما يغرسه فيها أولياؤها، تماما مثلما يحصل لشقيقها الذكر⁽³⁹⁾.

فإن تعهدوها بحسن التربية والإنبات الحسن؛ صدر عنها ما يسر ذوبها، وإن تمّ تكوينها على خلاف ذلك فلا لوم عليها، بل اللوم على من أساء تربيتها؛ يقول:

وَكَيْفَمَا تَكُونَتْ كَانَ الثَّمَرُ *** وَكُلُّ مَا تَضَعُهُ فِيهَا اسْتَقَرُّ

إذن فمن إفرازات هذه الأخوة التي لا يعترض عليها عاقل، وجوب ملاحظة المثلية في مكوناتها الفكرية، وتماثل خطر تجهيلها وإهمالها مثل ما يتوقع من شقيقها الذكر.

⁽³⁸⁾ ينظر مقال: الشيخ محمد بن إبراهيم عالم الديار السعودية وفقهها (1311-1389هـ)، د.محمد بن سعد الشويعر، مجلة البحوث الإسلامية/الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: مج51/ص318.

⁽³⁹⁾ وسيأتي تدعيم الشيخ الألباني لهذا الرأي في ثنايا نقده للحديث الذي يستند عليه المعارضون لتعليمها لاحقا.

فهي تحمل لهذه الأمة الخير إن كانت خيرة، وتُحمّله شرورها إن كانت وعاء شرّ، وتُجرّع مجتمعا المرارة وتلسهه بأشواكها إن لم يُحسن تربيتها وتعليمها والعناية بها. وهي قابلة للانفعال، فكلّ ما تودعه فيها يثمر، ويؤتي أكله؛ بسبب لزومها بيتها أكثر أوقاتها وخلوّ بالها من شواغل الحياة خارجه؟

عواقب إهمال المرأة وحرمانها من التعليم:

وانطلاقا من هذه المقدمة النظرية التي لا يختلف فيها عاقل، يتوجّه الشيخ الإبراهيمي باللائمة على من يرضى من العقلاء استمرار إهمالها وتهميش دورها في النهوض بالأمة، ومعاملتها معاملة الزوائد، وقد شبّه الشيخ البشير تعامل المشايخ معها كتعاملهم مع الحواشي والطرر والتعليقات التي كانوا يجدونها في هوامش الكتب المخطوطة التي كانوا يقرؤونها، وفيه تجاهل منهم لبشريتها، وانتقاص من قدرها؛ ويتناول الإبراهيمي -بشيء من التعجب والسخرية- موقف من يريد النهوض بالأمة مع استمراره في تجاهل المرأة والإسهام في تجهيلها، وهو جهل تنقله -لا محالة- إلى الجيل الذي ينشأ في حجرها؛ يقول:

فَكَيْفَ يَرْضَى عَاقِلٌ أَنْ تَسْتَمِرَّ *** مَزِيدَةٌ عَلَى الْحَوَاشِي وَالطَّرُرُ
تَزْرَعُ فِي النَّشْءِ أَفَانِينَ الْخَوَرِ *** تُرْضِعُهُ أَخْلَاقَهَا مَعَ الدَّرْرِ

وهو عين ما عبّر عنه أحمد شوقي بقوله⁽⁴⁰⁾:

وَإِذَا النَّسَاءُ نَشَأْنَ فِي أُمَّيَّةٍ *** رَضَعَ الرَّجَالُ جَهَالَهَ وَخُمُولًا
وفيه أنشد الرّصافي قوله⁽⁴¹⁾:

فكيف نظنُّ بالأبناء خيراً *** إذا نشأوا بحضن الجاهلات
وهل يُرجى لأطفال كمال *** إذا ارتضعوا ثديّ الناقصات

⁽⁴⁰⁾ الأعمال الشعرية الكاملة (الشوقيات)، أحمد شوقي، ط1، دار العودة / بيروت، 1988م : 1/ 183.

⁽⁴¹⁾ من قصيدة التربية والأمهات، لمعروف الرصافي مطلعها :

(هي الأخلاق تبنت كالنبات *** إذا سُقيت بماء المكرمات)

ديوان معروف الرصافي، مراجعة مصطفى الغلاييني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة/ مصر 2014م: ص526.

ما الذي نتوقعه من جيل تربيته نساء ألفن الذلّ والامتهان، وهل نتوقع جيلا متعلّما كريما شهما ينشأ على يد أمثال تلك النسوة؟!

لا يمكن أن تجني من الشوك العنب، ولا من الجهل الأدب، ولن يغنيك في هذه مجد قديم أو نسب كريم.. إنّ لإهمال المرأة في التعليم والتربية عواقب وخيمة، وبلاء عظيما... إنّ ذلك الإهمال منذر بضرر أكيد وفناء وشيك؛ قال الإبراهيمي:

وإنَّهَا إِنِ أَهْمِلْتِ كَانَ الْخَطَرُ *** كَانَ الْبَلَاءُ كَانَ الْفَنَاءُ كَانَ الضَّرَرُ

ذلك أنّ صحبة الجهول مؤذنة ببلوى وشيكة، فكيف إذا كان ذلك الجهول قيما على إنبات نشء الأمة ومستقبلها؟! ...

وهو مطلب أشاد به الحكماء وأهل التربية، فقالوا:

"عدو عاقل خير من صديق جاهل (أحمق)"⁽⁴²⁾

وكلُّ قرين بالمقارن يقتدي،

وأن الصديق إلى المقارن يُنسبُ،

يُعدي كما يُعدي الصحيح الأجرُبُ؛

فإذا قالوا ذلك في اتخاذ الصديق، فكيف يكون الأمر بمن كانت أمه كذلك؟! وأنشد

فيه الشاعر قوله:

عدوك ذو العقل خير من ال.....صديق لك الوامق الأحمق⁽⁴³⁾

بل لعلنا لا نبالغ إن قلنا بأنّ المرأة أولى بالتعليم من الرّجل إذا أخذنا بالحسبان المدة التي يقضيها النشء في حجورهن، وكثرة انشغال غالب الرجال بجلب الأرزاق خارج البيت، وهي فترة غالبا ما تحدد مستقبل الناشئة، وتبني فيها قاعدة ارتقائهم، وتتأسس فيها

⁽⁴²⁾ ملامح يونانية في الأدب العربي، إحسان عباس، ط1/ 1977، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت: ص137.

⁽⁴³⁾ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تح: مفيد قمحية وجماعة دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ج33 ط1 - 1424 هـ - 2004 م : 3/ 326.

منطلقاتهم الفكرية؛ فعلى ذلك تكون الأم -بحق- علامة فارقة في صناعة مستقبل الأمة، وصدق حافظ إبراهيم حينما قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها *** أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا *** بالري أورق أيما إيرا
الأم أستاذ الأساتذة الألى *** شغلت مآثرهم مدى الآفاق

فهي إن علّمت كانت ملجأً وسنداً لكل حركة إصلاحية، بخلاف ما إن كانت جاهلة، فإنها تكون عالة وحمل ثقيل على المجتمع؛ ... ذلك ما عبر عنه الشيخ الإبراهيمي بقوله:

وإنها إن علّمت كانت ورز *** أو لا فوزز جالب سوء الأثر
ونظير ذلك قول الرصافي⁽⁴⁴⁾:

وليس ربيب عالية المزايا *** كمثل ربيب سافلة الصفات

هل كان الدين سببا في حرمان المرأة من التعليم؟:

ولنا في هذا المقام أن نتساءل: ما الذي دفع بكثير من المسلمين من حرمان المرأة من التعليم، وإن أسوأ تعليل صدر إجابة على هذا السؤال هو نسبة ذلك إلى التعاليم الدينية، وبالنظر إلى ما لتلك التعاليم من قدسية واحترام كبيرين في نفوس عموم الناس صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، فقد أدى ذلك إلى الإذعان لتلك الدعوى، وعدم الجرأة على مناقشتها فضلا عن رفضها ولفظها.

هي قضية تعرّض إليها الإبراهيمي كما تعرّض لها كثير من المصلحين، حيث قال في

قصيدته:

وَمَنْعُهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالنَّظَرِ *** لَمْ تَأْتِ فِيهِ آيَةٌ وَلَا خَبْرٌ

⁽⁴⁴⁾ ديوان الرصافي: ص 525.

قال: "... ويلوك أصحاب هذه النزعة آثارًا مقطوعة الأسانيد، مخالفة لمقاصد الشريعة العامة وتربية محمد ﷺ العملية لنسائه ونساء المسلمين العالمات، ثم يؤيدون تلك الآثار الضعيفة الإسناد بأقوال الشعراء الذين يستمدون شعورهم من شريعة العواطف المتباينة، لا من شريعة الله الجامعة، ومتى كان الشعراء مصدر فتوى في الدين؟" (45). إلى أن قال: "... ولا سبب لانحطاط المرأة عندنا إلا هذا الضلال الذي شوّه الدين وقضى على المرأة بالحمول فقضت على الرجل بالفشل، وكانت نكبة على المسلمين. وما المرأة المسلمة الجزائرية إلا جزء من المجموعة الإسلامية" (46).

ففتند تلك الدعاوى بعدم وجود أي دليل على منع المرأة من ممارسة الكتابة والنظر، وفي ذلك تعريض بمن يتذرع في منعها ببعض ما يذكره الرواة منسوباً إلى النبي ﷺ أنه قال: "لا تسكنوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن المغزل وسورة النور" (47).

وهو حديث جزم الذهبي بأنه موضوع، وبه قال الألباني، وأبدى تعجبه من ذهول طائفة من المتأخرين عن حال هذا الحديث؛ فقالوا بصحته تصريحاً أو تلويحاً مغترّين بقول الحاكم في المستدرک، منهم ابن حجر الهيتمي، والشوكاني، وغيرهما (48).

(45) من كلام الإبراهيمي بتصرف. ينظر آثار الإبراهيمي: 4 / 264.

(46) من كلام الإبراهيمي بتصرف. ينظر المرجع نفسه: 4 / 264.

(47) أخرجه الحاكم في مستدرکه وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وعلق عليه الذهبي في التلخيص بقوله: "بل موضوع". المستدرک على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، وعليه تعليقات الذهبي، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 / 1411 - 1990: 2 / 430، الحديث رقم 3494. قال الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة: "أخرجه ابن حبان في (الضعفاء) (302/2)، والخطيب (224/14)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (477/2 - 2454/478) من طريق محمد بن إبراهيم أبي عبد الله الشامي: حدثنا شعيب بن إسحاق الدمشقي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعاً. وقال البيهقي: "و هو بهذا الإسناد منكر". قال الألباني: "وهو عندي موضوع". ينظر السلسلة الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف - الرياض - السعودية، ط1 / 1412-1992: (30/5).

(48) ينظر المرجع نفسه: (30/5)، الحديث رقم 2017.

وقد حاول الشوكاني توجيه المنع المذكور في الحديث، والجمع بينه وبين حديث صحيح يبيح تعليم النساء الكتابة، بقوله: "فالتَّهْي عن تعليم الكتابة في هذا الحديث محمول على من يخشى من تعليمها الفساد"⁽⁴⁹⁾، فعَلَّق عليه الألباني قائلاً: "هذه الخشية لا تختص بالنساء، فكم من رجل كانت الكتابة عليه ضرراً في دينه وخلقه، أفيَنهَى عن الكتابة الرجال أيضاً للخشية ذاتها؟!"

ثم إن التأويل فرع التصحيح، فكأنَّ الشوكاني توهم أن الحديث صحيح، وليس كذلك - كما علمت -، فلا حاجة للتأويل إذن"⁽⁵⁰⁾.

ثمَّ إنّ النصوص العامة للقرآن والسنة جاءت بخلاف ذلك، وفيها أمر عام بالتعلم للقراءة والكتابة، والتدبر والتعقل والتفكير، وهي أوامر عامّة لا تخصّ الرجل دون المرأة، كما سبق بيانه في كلام الشيخ ابن باديس أنفاً.

⁽⁴⁹⁾ نيل الأوطار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني، تح: عصام الدين الصباطي، دار الحديث مصر، ط1/ 1993-1413: 245 / 8.

⁽⁵⁰⁾ ينظر السلسلة الضعيفة والموضوعة: (30/5)، الحديث رقم 2017.

وقد علّق الشيخ الألباني على الأقوال التي ساقها في الموضوع تعليقا نفيسا أحببت إثباته كاملا زيادة للفائدة، قال: "والحق أنّ الكتابة والقراءة، نعمة من نعم الله تبارك وتعالى على البشر كما يشير إلى ذلك قوله عز وجل (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)، وهي كسائر النعم التي امتن الله بها عليهم وأراد منهم استعمالها في طاعته، فإذا وجد فيهم من يستعملها في غير مرضاته، فليس ذلك بالذي يخرجها عن كونها نعمة من نعمه، كنعمة البصر والسمع والكلام وغيرها، فكذلك الكتابة والقراءة، فلا ينبغي للآباء أن يجرموا بناتهم من تعلمها شريطة العناية بتربيتهم على الأخلاق الإسلامية، كما هو الواجب عليهم بالنسبة لأولادهم الذكور أيضا، فلا فرق في هذا بين الذكور والإناث. والأصل في ذلك أن كل ما يجب للذكور وجب للإناث، وما يجوز لهم جاز لهن ولا فرق، كما يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما النساء شقائق الرجال"، رواه الدارمي وغيره، فلا يجوز التفريق إلا بنص يدل عليه، وهو مفقود فيما نحن فيه، بل النص على خلافه، وعلى وفق الأصل، وهو هذا الحديث الصحيح، فتشبهت به ولا ترض به بديلا، ولا تصغ إلى من قال: ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابة*** هذا لنا ولهن منا أن يمتن على جنابه!

فإن فيه هضمًا لحق النساء وتحقيرا لهن، وهن كما عرفت شقائق الرجال، نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإنصاف والاعتدال في الأمور كلها. "السلسلة الصحيحة: الحديث رقم 178.

ولما رأى المعارضون أن ليس لهم في الشرع الحنيف مستند في منع النساء من التعليم، تعلّلوا بمبررات أخرى، تمكّنهم من إعمال أصول شرعية أخرى أبرزها منعها من باب سدّ الذرائع للمفاسد التي نشأت من تعليمها في المدارس النظامية حينئذ، خصوصاً وأنّ النماذج السائدة حينئذ كانت مناهج غريبة فيها تحوير طفيف.

الاقتداء بنساء الصدر الأوّل:

شفّع الإبراهيمي دعواه بعدم وجود دليل من كتاب أو سنّة على ذلك المنع بما أثر من سيرة نساء الصدر الأوّل من فضليات هذه الأمة، وسيرة النبي ﷺ مع نسائه؛ قال:

وَالْفُضْلِيَّاتُ مِنْ نِسَاءِ صَدْرٍ غَبَرُ *** لَهُنَّ فِي الْعِرْفَانِ وَرْدٌ وَصَدْرُ

والصدر الأوّل جيل تمت تركيبته، وهو الترجمة الواقعية للتعاليم الإسلامية، ولم يؤثر عن رجاله منع النساء من نعمة عدّها النبي ﷺ طريقاً سالكا من طرق الجنة، كما في الحديث الصحيح.

فماذا اليوم ضرّ لو التفتنا *** إلى أسلافنا بعض النفات

فهم ساروا بنهج هدى وسرنا *** بمنهاج التفرق والشتات

نرى جهل الفتاة لها عفاً *** كأن الجهل حصن للفتاة

والطريف في الموضوع أنّ واضع الحديث المذكور آنفاً، نسب روايته زوراً إلى أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) عن النبي ﷺ، وهي التي تربّت في حجر النبي، وتعلّمت منه ما أعلا قدرها بين فقهاء الصحابة من الرجال فضلاً عن النساء، قال الرصافي⁽⁵¹⁾:

وكانت أمنا في العلم بحراً *** تحل لسائليها المشكلات

وعلمها النبيّ أجلاً علم *** فكانت من أجّل العالمات

لذا قال ارجعوا أبدأ إليها *** بثلثي دينكم ذي البيئات

(51) ديوان الرصافي: ص 526.

لا تقوم الأمة ونصفها يعاني الخدر:

وتعجب الشيخ بعدها ممن يتوقع الخير من أمة تعاني شللاً نصفياً، كيف تطمع في

القيام بنصف كيائها فقط؛ قال:

وَأَنْظُرْ هَذَاكَ اللَّهُ مَاذَا يُنْتَظَرُ *** مِنْ أُمَّةٍ قَدْ شَلَّ نِصْفَهَا الْخَدْرُ

لم يحفظ التاريخ قيام أمة من الأمم قبل الرقي بنسائها:

ثمّ يوجه الشيخ الإبراهيمي مخاطبته إلى التمعن والاعتبار من سير الأمم العظيمة؛

قدبمها وحاضرها، التي حازت شأنا عظيما في الحضارة، هل استطاعت بلوغ ذلك دون

إشراك نسائها في مناهل العلم والمعرفة والخبرة الذي سُقي منه رجالها، وهو سؤال لا يحتاج إلى

جواب لبداهته وضرورته؛ قال:

وَأَنْظُرْ هَذَاكَ اللَّهُ مَاذَا يُنْتَظَرُ *** مِنْ أُمَّةٍ قَدْ شَلَّ نِصْفَهَا الْخَدْرُ

وَأَنْظُرْ فَقَدْ يَهْدِيكَ لِلْخَيْرِ النَّظَرُ *** وَخُذْ مِنَ الدَّهْرِ تَجَارِيِبَ الْعِبَرِ

هَلْ أُمَّةٌ مِنَ الْجَمَاهِيرِ الْكُبْرِ *** فِيمَا مَضَى مِنَ الْقُرُونِ وَحَضَرَ

خَطَّتْ مِنَ الْمَجْدِ وَمِنْ حُسْنِ السَّيْرِ *** تَارِيخَهَا إِلَّا بِأَنْشَى وَذَكَرْ؟

وقد سبق إشارة الشيخ إلى ذلك من خلال تشبيه الأمة كالبطائرة لا تطير إلا

بجناحين، وجناحاها هما الرجل والمرأة، وأنّ الأمة التي تخصّ الذكر بالتعليم إنّما تريد أن تطير

بجناح واحد، وهي واقعة لا محالة.

بل إنّها إنّ جُهِلَّتْ تعطلت، وإذا تعطلت عطلت الرجل وإذا تأخرت أحرته⁽⁵²⁾.

الجهل أزرى بالمرأة من تعليمها:

مما تعرّض له الإبراهيمي في هذه القصيدة الفدّة شبهة تعلق بها كثير ممن عارضوا تعليم

المرأة بعدما خذلت النصوص آمالهم وأمانيتهم، فتعللوا بأنّ في تعليم المرأة شرّاً عظيما عليها

وعلى المجتمع، قال الإبراهيمي في معرض تعليل سبب الإعراض عن تعليم المرأة في العالم

(52) من كلام الإبراهيمي بتصرف. ينظر آثار الإبراهيمي: 264 / 4.

الإسلامي المعاصر له: "والسبب في هذه الحالة نزعة قديمة خاطئة راجت بين المسلمين وهي أن تعليم البنت مفسدة لها!"⁽⁵³⁾.

يقرر العلامة تقي الدين الهلالي شبهة أصحاب هذا المذهب بقولهم: "... تعليم النساء يفسد أخلاقهن، فإن المرأة التي لا تقرأ ولا تكتب تكون بعيدة عن متناول شياطين الإنس... وكم رأينا من متعلمات لم يأتحن الشر إلا من قبل تعلمهن... فإن معرفة الفتاة للقراءة توصل إلى ذهنها جميع ما يقع في الدنيا من الفساد والمخادنة وتملاً فكرها بهواجس حبيثة كانت في عافية منها... فتعليم الكتابة ذريعة إلى المكاتبه مع الفجار..."⁽⁵⁴⁾.

قال الشيخ الإبراهيمي مفنداً قول هؤلاء:

وَمَنْ يُقُلْ فِي عِلْمِهَا غَيٌّ وَشَرٌّ *** فَقُلْ لَهُ هِيَ مَعَ الْجَهْلِ أَشْرٌ

أجل .. إنّ الجهل يزيد الشر شراً، والعلم نور إلهي وقبس من أوصافه، فهو حريّ بأن يهذب الشرير بدل تأجيج شرّه.. وهي دعاوى أحسنَ معروف الرُصافي إجمالها وتفنيدها بقوله⁽⁵⁵⁾:

وقالوا شرعة الإسلام تقضي *** بتفضيل (الذين) على (اللواتي)

وقالوا إن معنى العلم شيء *** تضيق به صدور الغايات

وقالوا الجاهلات أعفُ نفساً *** عن الفحشا من المتعلمات

لقد كذبوا على الإسلام كذباً *** تزول الشمُّ منه مُزَلِّلات

أليس العلم في الإسلام فرضاً *** على أبنائه وعلى البنات

وأما ما ذكروا من منغصات فهو كدر لا انفكاك عنه قبل أن يصفوا لنا المراد (ولاً يَكُونُ الصَّفْوُ إِلَّا عَنْ كَدْرٍ)، وهي سنّة كونية لا بدّ منها في حصول مثل هذه الأمور الكبار.

⁽⁵³⁾ المرجع نفسه: 264 / 4.

⁽⁵⁴⁾ مقال بعنوان (تعليم الإناث وتربيتهن)، د. تقيّ الدّين الهلالي: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ع. 8.

⁽⁵⁵⁾ ديوان الرصايي: ص 526.

التحذير من مغبة التقاعس في تدارك الموضوع:

ينتقل الشيخ محمد البشير إلى مقام النذير الذي يحذر مخاطبته من مغبة التقاعس في تجاهل القيام بهذا الواجب، ووبال الإخلال بسد هذه الثغرة، فإن سنن الله تعالى لا تحابي المؤمن المقصّر، على حساب الكافر الذي يأخذ بها.. ولا تترك بنيانا يقوم على أساس مغشوش، خصوصا وأنّ دسائس المكر قد أحدثت بذوات الخدور في جميع البلاد الإسلامية؛

قال الشيخ الإبراهيمي:

وَأَنَّ تَيَّارَ الزَّمَانِ الْمُحْدَرُ
لَجَارِفٌ كُلُّ بِنَاءٍ مُشْمَخَرٌ⁽⁵⁶⁾
فَأَحْذَرُ وَسَابِقُ فَعَسَى يُجْدِي الْحَذْرُ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّ الْمُنْكَرَاتِ وَالْغَيْرِ
تَدَسَّسَتْ لِلْغُرُفَاتِ وَالْحُجْرِ
مِنْ مِصْرَ وَالشَّامِ وَمِنْ شَطِّ هَجْرِ

وقد حدّر الإبراهيمي المتقاعسين والمتخوفين من عواقب تعليم المرأة بأنّ ما يحاذرونه واقع لا محالة:

وَأَنَّهَا قَارِئَةٌ وَلَا مَفْرٌ *** إِنَّ لَمْ يَكُنْ عَنْكَ فَعَنْ قَوْمٍ أُخْرُ

فالأحرى بهم أن يكون ذلك على أيديهم، ولا يتركونه يقع في أحضان المتربصين بالمرأة المسلمة.

والحق أنّ تفريط المسلمين في ما أشار به الإبراهيمي قد جرّ عليهم ويلات ووبالا كثيرا، خصوصا من نسوة أهملهنّ ذوهن وأولياء الأمور في بلدانهم، فتربّين في أحضان غريبة، وعُدن باللائمة على هذا الدين وأهله، وجاهرن بمعاداة الإسلام وتعاليمه، معتقدات بأنّه سلبهن كرامتهن الإنسانية، وحرمنّ أعلى نعم الله عليهنّ؛ وهو التعليم والتربية، والدين من كلّ ذلك براء، والجريمة التي وقعت فيها الأمة هي أنّها خلعت على أعرافها الفاسدة لباس الدين وهالة القداسة حتى لا تُناقش، فكان الأمر كما قال الرصافي شاكيا⁽⁵⁷⁾:

⁽⁵⁶⁾ المشمخر: العالي.

⁽⁵⁷⁾ ديوان الرصافي: ص 526.

أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ نَشْكُو *** مصيبتنا بجهل المؤمنات
تَحَدُّنَا بِعَدَلِكَ الْعَادَاتِ دِينًا *** فأشقى المسلمون المسلمات

الحلّ الأوفق:

ثمّ أرشد الإبراهيمي إلى سبيل فعل ذلك، مع النجاة من الأكدار المتوقّعة منه، وهو تربيته وتهيئتها قبل تسليمها للتعليم، وزرع الوازع الأخلاقي والديني في نفسها، فهوي الوقاية والوجاء، مما يحاذرونه، قال:

حُطِّهَا بِعِلْمِ الدِّينِ وَالخُلُقِ الأَبْر *** صَبِيَّةٌ تَأْمَنُ بِوَأْتِقِ الصَّرُّ

الزواج بالأجنبيات المتعلّقات بسبب تجهيل بنات الأمة:

حدّر الإبراهيمي المتحقّطين من تعليمها مما يحدق بها، إن استمرّ الأمر على ما هو عليه، وهو عزوف شباب الأمة عن الزواج بيناتها، خصوصا عندما يرى الفارق بين بنات الغرب المتعلّقات، وبنات العمّ الجاهلات، وهو فارق لا يحتاج إلى كثير نباهة لإدراكه، وهو إن خيّر بين جاهلة عفيفة وبين متعلّمة متحرّرة فإنّه سوف يختار الثانية لا محالة؛ لطمعه في إصلاح شيء من أخلاق الثانية، دون استدراك ما فات الأولى من نعمة التعليم، خصوصا وأنّ الشرع لم يحظر الاقتران بالكتابية؛ أجمل الإبراهيمي الكلام في ذلك بقوله:

وَأَعْلَمُ بِأَنَّ نَشَأَنَا إِذَا كَبُرُ *** عَافَ الزَّوْجَ بِأَبْنَةِ العَمِّ الأَعْرُ

يَهْجُرُهَا بَعْدَ عَدِّ فِيمَنْ هَجَرَ *** لِأَنَّهَا فِي رَأْيِهِ مِثْلُ الحَجَرِ

وَيَصْطَفِي قَرِينَةً مِنَ العَجْرِ *** لِأَنَّهَا قَارِنَةٌ مِثْلُ البَشْرِ

وذلك ما سيدفع ابنة العمّ إلى السّعي للتعلّم بمثل تعليم الأجنبيّة، والتحلّي بصفاتها وأخلاقها، حتى تسترجع شيئا مما فاتها، وهي ظاهرة لا نزال نعاني منها إلى يومنا هذا.

تقديره أسباب فشل التعليم الفرنسي للجزائريات:

على الرغم من التنويه المحتشم الذي أظهره الإبراهيمي بالتعليم الفرنسي للمرأة

الجزائرية، فقد وصفه بالفجر الكاذب، وعزا فشله إلى أمرين:

أحدهما - كونه بدأ بتعليمها اللغة الفرنسية وهي لغة (ليست من روحها ولا من تقاليدها)، قال: "واللغة الأجنبية إن حسنت فإنما تحسن بعد اللغة المتصلة بالروح والتاريخ والمقومات الأصيلة فهي بالنسبة للجزائرية ربح، أما رأس المال فهو اللغة العربية"⁽⁵⁸⁾.

والثاني - أنه بدأ في المدن حديثة الحضارة، التي عمرت في عهد الاستعمار الفرنسي؛ مثل سكيكدة وسطيف وسيدي أبي العباس، وهي مدن عمارها طارئون وليست فيها بيوتات عريقة تمثل حضارتها الإسلامية وتحفظ تاريخها العلمي، ليسري بعد سنوات قليلة إلى المدن التاريخية ذات التقاليد الموروثة والماضي العلمي العتيق؛ وهي تلمسان وبجاية وقسنطينة والجزائر وما هو من نوعها⁽⁵⁹⁾.

أسباب التحاق الجزائريات بالتعليم الفرنسي:

ذكر الإبراهيمي انسياق الجزائريين لإلحاق بناتهم بالمدارس الفرنسية انسياقا غريبا بعد ما كانوا معرضين عنه، وأرجع السبب (في رأيه) إلى المنافسة من أصحاب البيوتات العريقة لمن هم دونهم، ذلك أنّ هذا النمط من التعليم ضرب أطنابه في المدن غير العريقة أولا (كما سبق)، ثم انتقل إلى المدن العريقة، قال الإبراهيمي: "وإنما السبب الأول لهذا الإقبال على تعليم البنات باللغة الفرنسية هو تقليد من أغرب أنواع التقليد (يصح أن نسميه تقليد المنافسة) وغرابته أنه تقليد من الأعلى للأدّون، وهو في موضوعنا تقليد الحضريّ العريق للمتضرر الجديد"⁽⁶⁰⁾.

وأما السبب الثاني فهو افتقار بيئتهم في ذلك الحين إلى أيّ تعليم رسمي أو حرّ باللغة العربية سبق ذلك التعليم.

ويضيف الشيخ الإبراهيمي عاملا آخر، وهو التطور الفكري الذي ساد حينها، وكان له أثره في الموضوع⁽⁶¹⁾.

⁽⁵⁸⁾ آثار الإبراهيمي: 4 / 264.

⁽⁵⁹⁾ ينظر المرجع نفسه: 4 / 264.

⁽⁶⁰⁾ المرجع نفسه: 4 / 264.

⁽⁶¹⁾ ينظر المرجع نفسه: 4 / 265.

الردّ على المناوئين لمساعي الجمعية في تعليم المرأة:

لا تخلُ حركة إصلاح وتغيير من معاول هدم وألسنة تعبير وتعكير، وقد كان للجمعية نصيبها من ذلك، فقد قام مناوئوها بالإغارة عليها من هذا الباب، والظعن في مساعيها في هذا الموضوع، فشنعوا عليها، وادّعوا بأنّها تحاول النيل من شرف المرأة الجزائرية وتعريضها للموبقات، وهي فئة يستأجرها الاستعمار كلّما قامت في الوطن حركة صالحة، وخشي منها على سلطانه أن ينهار، ويستعين بها بعد فشله في استقطاب مدارس العربية التي أنشأها للضّرار، وكان في عداد أولئك بعض مشايخ السوء، وصحيفة تثير "الغبار حول تعليم جمعية العلماء للبنات المسلمة في مدارسها، وترميها - إفكاً وزوراً- بالعظائم، وتختلق من الوقائع ما يهدي البُله فضلاً عن العقلاء إلى قصدها من ذلك ومرماها، وتتصنّع الغيرة على أعراض المسلمات أن تنتهك، وعن الحرمات الإسلامية أن تُهان، وتستعدي السماء والأرض على جمعية العلماء لأنها عرضت الأعراض المصونة للتمزيق، وتبأكي على الإسلام حتى يوشك أن ينقلب مدادها دموعاً"⁽⁶²⁾. وهي جريدة (أفريقيا الشمالية).

فتساءل الإبراهيمي قائلاً: "ما لهؤلاء الرهط- أنصار الأعراض- يسكتون عن أعراض عشرات الآلاف من المسلمات المستخدمات عند الأجانب؟! ما لهم لم تتحرّك غيرتهم على عشرات الآلاف من اللواتي يملأن المواخير؟! ما لهم عميت أبصارهم وبصائرهم عن هذا السيل من التعليم الاستعماري الجارف المتوجّه إلى البنات المسلمة على الخصوص، لينتزعها من الخدر، وينزع عنها لباس الفضائل الإسلامية؟
أين كانوا- لا كانوا- من أفواج البنات المسلمات، طرائد البؤس، وفرائس التبشير المسيحي، وهنّ تحت أسماعهم وأبصارهم!؟

(62) المرجع نفسه: 3/ 383.

كأن هؤلاء المسلمات كلهن في كنف الصيانة، وكأن أعراضهن في حماية عمر بن الخطاب من أمثال نصر بن حجاج، فلم يبقَ معرضاً للانتهاك إلا بضعة آلاف ممن يتعلمن في مدارس جمعية العلماء"⁽⁶³⁾.

ثمّ ذكر كذبهم وبين منهج الجمعية في تعليم البنات وتربيتهنّ بقوله: "كذبتم وفجرتم- أيها الرهط- إن جمعية العلماء حاربت الرذيلة جهاراً، وحاربت دعاة التحلل الأخلاقي كفاحاً، ووقفت من التبشير وغيره مواقف مشهودة، وإنها تعلّم البنت المسلمة العلم والعفاف، وتربيها على الكرامة والشرف، علماً بأن العلم الديني هو رائد العفاف، وأن الجهل هو سبب انحدارها إلى ما ترونه وتتعامون عنه، وإن جمعية العلماء- لما بلته من أمثالكم من فساد الأخلاق- تبالغ في الاحتياط، وتسرف في التشدد، وتعاقب على الظنة والتوهم، قمعاً لغرائز الشر، وسداً لذرائع الفجور، وإن في بعض من تشيرون إليه منتصرين ممن فصلتهم عن التعليم، من كان سبب فصله هذا الاحتياط"⁽⁶⁴⁾.

وذكر سبب تحريك الاستعمار لهؤلاء، وهو ما عنده من بُعد نظر، ومعرفته بما للمرأة في أمتها من الأثر، فعمد إلى قدر فيه "زعزعة ثقة الأمة بالجمعية في خصوص تعليم البنت وإعراضها عن هذا النوع من التعليم، وتكون النتيجة النهائية رجوع المرأة المسلمة إلى الجهل ثم إلى الفجور، أو إلى هذا الاسترقاق الذي يسمّى استخداماً. هذا حظ الاستعمار من جهل المرأة المسلمة بدينها ولغتها، وهذه هي النتيجة التي نَعِم بها حيناً من الدهر لو لم تكدرها عليه جمعية العلماء بهذه البداية التي عرف نهايتها."⁽⁶⁵⁾

ثمّ أشار إلى السبب الثاني في قيام هؤلاء المناوئين في الاعتراض على مساعي الجمعية، وهو سبب لا يأمر به الاستعمار، ولكنه لا يسوّؤه إن حصل، ألا وهو حينئذهم إلى تلك السيطرة وبسط اليد على إماء الله تعالى واستضعافهن، واستغلالهن للشهوات؛ قال الإبراهيمي: "إننا أدركنا وأدركتم أقواماً منّا كانوا يأخذون البنات المسلمات هدايا بلا صداق،

⁽⁶³⁾ المرجع نفسه: 3/ 385.

⁽⁶⁴⁾ المرجع نفسه: 3/ 385.

⁽⁶⁵⁾ المرجع نفسه: 3/ 385.

ويعاملونهن كالسبايا بلا عتاق، ثم يتركوهن محبوسات بلا طلاق. ويجاوزون في هذا الباب كل حدود الشرع، وما زال من بقاياهم من يتزوج في غرة كل شهر، ويطلق في انسلاخه، فلما جرف الإصلاح هذه الضلالة بقي في نفوسكم حنين إليها وتحرق عليها، وتمنّى لعودتها⁽⁶⁶⁾.

حول

(قصيدة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في تعليم البنات)

هي أرجوزة⁽⁶⁷⁾ نظمها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وأرسلها إلى صديقه أحد أعيان علماء المملكة العربية السعودية، وهو الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، مفتي المملكة العربية السعودية، في محاولة لتحفيزه على سدّ ثغرة ورأب صدع في الحركة الإصلاحية التي قادها جده في الجزيرة العربية، وثني مشايخها عن موقفهم حيال تعليم المرأة، وهي نصيحة محب مشفق، أراد بها الكمال لهذه الحركة، وهو الذي تأثر بكثير من مبادئها، وتعاطف مع أعلامها، غيرة على سمعتها وسيرتها وفكرها، وقد صرح بشيء من ذلك في مطلع هذه القصيدة؛ ويظهر أنّ هذه القصيدة كان لها أثرها في تحول سياسة المملكة بعد ذلك، إذ تقدم مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في عام 1379هـ بحرية بمشروع للملك سعود في هذا المسعى، وافتتحت مدارس البنات في مدن المملكة في عام 1380 هـ، بمرسوم ملكي.

وها أنذا أورد القصيدة بتمامها، مع بعض شروح المفردات والتعليقات المرفقة بها في آثار الشيخ⁽⁶⁸⁾، أضفت إليها شرح بعض الكلمات إتماماً للفائدة.

⁽⁶⁶⁾ المرجع نفسه: 3/ 385.

⁽⁶⁷⁾ يقول جامع آثار الشيخ البشير الإبراهيمي عن القصيدة بأنها: "أرجوزة موجهة لبعض علماء نجد، استنهاضاً لهم على تعليم البنات، واستتلاً لقلوبهم حتى تقبل بهذا الأمر (المنكر) في رأيهم." آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: (4/ 131-134).

⁽⁶⁸⁾ القصيدة كاملة مع هوامشها وتعليقاتها مقتبسة من: المرجع السابق: (4/ 131-134).

القصيدة الإبراهيمية في ضرورة تعليم البنات:

كَأَنِّي خَرَجْتُ عَنْ طَوْرِ الْبَشَرِ⁽⁶⁹⁾
 أَهِيْمُ فِي بَدْرِ الدُّجَى إِذَا سَفَرُ
 وَأَنْظِمُ إِنْ هَبَّ نَسِيمُ بِسَحَرِ
 وَأَقْطَعُ اللَّيْلَ إِذَا اللَّيْلُ اعْتَكَرَ
 وَإِنْ هَوَى نَجْمُ الصَّبَاحِ وَأَنْكَدَرَ
 ثُمَّ ارْعَوَيْتُ بَعْدَ مَا نَادَى الْكَبِيرُ⁽⁷⁰⁾
 وَكَتَبَ الشَّيْبُ عَلَى الرَّأْسِ النُّذْرُ
 فَلَسْتُ أَنْسَى فَضْلَهُ فِيمَا حَجَرَ⁽⁷¹⁾
 أَكْسَبَنِي مَا يُكْسِبُ الْمَاءُ الشَّجَرَ
 طَبَعَنِي عَفْوًا وَمِنْ عَيْرِ ضَحَرَ
 عَقِيدَتِي فِي الصَّالِحَاتِ مَا أُثِرُ
 مِنْ سِيرٍ أَعْلَامَهَا لَمْ تُنْذِرُ
 قَدْ طَابَقَتْ فِيهَا الْبَصِيرَةُ الْبَصَرَ
 وَالتَّابِعِينَ الْمُفْتَتِينَ لِلْأَنْرِ
 صَحَّ بِرَاوٍ مَا وَنَى وَلَا عَثَرَ
 وَالخُلَفَاءَ الصَّالِحِينَ فِي الرُّمْرِ
 لَا وَلَا أَرْفَعُهُمْ فَوْقَ الْبَشَرِ
 وَشِيعَتِي فِي الْحَاضِرِينَ مَنْ نَشَرَ
 لِعِلْمِهِ وَفَقَّ الدَّلِيلِ الْمِسْتَطَرَّ

*** قَدْ كُنْتُ فِي جِنِّ النَّشَاطِ وَالْأَشْرِ
 *** وَكُنْتُ نَجْدِيَّ الْهَوَى مِنْ الصَّعْرِ
 *** وَأَتَّبِعُ الظُّبْيَ إِذَا الظُّبْيُ نَفَرَ
 *** مَا رَقَّ مِنْ شَعْرِ الْهَوَى وَمَا سَحَرَ
 *** فِي جَمْعِ أَطْرَافِ الْعَشَايَا وَالْبُكَرِ
 *** لَبَيْتُ مَنْ أَعْلَى النَّدَاءِ وَابْتَدَرَ
 *** وَأَكَّدْتُ شُهُودَهُ صِدْقَ الْخَبَرِ
 *** بَاكَرِي فَكَانَ فِيهِ مُزْدَجَرَ
 *** وَلَسْتُ أَنْسَى وَصْلَهُ لِمَنْ هَجَرَ
 *** حُسْنًا وَظِلًّا وَلِحَاءِ⁽⁷²⁾ وَمَمَرِ
 *** عَلَى صِفَاتٍ أَشْبَهَتْ نَفْسَ الْحَجَرَ
 *** عَنْ أَحْمَدٍ وَمَا تَرَامَى وَنُشِرِ
 *** وَسُنَنِ مَا شَانَ رَاوِيَهَا الْحَصَرَ⁽⁷³⁾
 *** وَمَا أَتَى عَنْ صَحْبِهِ الطُّهْرَ الْعُرْزُ
 *** وَقَائِدِي فِي الدَّيْنِ آيٍ وَأَنْزُرِ
 *** وَمَذْهَبِي حُبُّ عَلِيٍّ وَعَمَرِ
 *** هَذَا وَلَا أَحْضُرُهُمْ فِي آتِي عَشْرِ
 *** وَلَا أَنْالُ وَاحِدًا مِنْهُمْ بِشَرِ
 *** دِينَ الْهُدَى وَدَبَّ عَنْهُ وَنَفَرَ

(69) الأشر: المرح والتبختر والاحتتيال. ... (الآثار)

(70) من أعلى النداء: يريد المؤذن. ارعوى: كفف ورجع. ... (الآثار)

(71) حَجَرَ: منع. ... (الآثار)

(72) اللِّحَاء: قشر العود أو الشجر. ... (الآثار)

(73) الحَصْرُ: العي في النطق. ... (الآثار)

هُمَّ شَيْعِي فِي كُلِّ مَا أجدَى وَضَر
 وَعُصْبِي فِي كُلِّ بَدْوٍ وَحَضَر
 فِي وَاحِدٍ يَجْمَعُ كُلَّ مَا انْتَشَر
 فِي الدَّعْوَةِ الكُبْرَى فَجَلَّى وَبَهَر
 كَتَائِبَ الجَهْلِ المَغِيرِ وَأَنْتَصَرَ
 سَلَالَةَ الشَّيْخِ الإِمَامِ المَعْتَبَرِ (75)
 عَنِ الوَرَى خَلَقَهُ مِنْهُمْ قَمَر
 وَلَقِيَ الأَدَى شَدِيداً فَصَبَرَ
 وَالإِبْنُ وَالِى السَّقِي كَيْ يَجْنِي الثَّمَر
 (مُحَمَّدٌ) مِنْ بَيْنِهِم حَادِي الرُّمَر
 بِمَا نَهَى مُحَمَّدٌ وَمَا أَمَرَ
 بَيْنِي عُقُولَ النَّشْءِ مِنْ غَيْرِ خَوَر
 كَالسُّورِ يَغْلُو حَجراً فَوْقَ حَجَر
 مَا لَمْ يُسَوِّرَ بِنِظَامٍ مُسْتَقِر
 مِنْ قَائِدِ سَاسِ الأُمُورِ وَخَبِر
 وَالجَيْشُ فِي كُلِّ المَعَانِي وَالصُّور
 وَالجَيْشُ أُسْتَاذٌ لِنَفْعِ يُدْخِر
 وَالكُلُّ قَدْ سَيِّفُوا إِلَيْكَ بِقَدَر
 حَلَّ الهُوَيْنَى لِلضَّعِيفِ المِحْتَقِرِ (76)
 فَيَا أَخَا عَرَفْتُهُ عَفَّ النَّظَر
 وَيَا أَخَا جَعَلْتُهُ مَرْمَى الشُّفَر

حَتَّى قَضَى مِنْ نُصْرَةِ الحَقِّ الوَطَر
 وَمَعَشَرِي فِي كُلِّ مَا سَاءَ وَسَر
 أَمَا إِذَا صَبَبْتُ هَذِهِ الرُّمَر
 (فَحَلَّتِي) (74) مِنْ بَيْنِهِم أَخْ ظَهَرَ
 وَجَالَ فِي نَشْرِ العُلُومِ وَقَهَرَ
 عَبْدُ اللُّطِيفِ المُرْتَضَى النَّدْبُ الأَبَر
 مِنْ آلِ بَيْتِ الشَّيْخِ إِنْ غَابَ قَمَر
 فَجَعَلْتُهُمْ نَمَى التُّرَابِ وَوَدَّر
 عَلَى الأَدَى فَكَانَ عُقْبَاهُ الطَّفَر
 (وَإِنَّ أَحْفَادَ الإِمَامِ) لَزُمَر
 تَقَاسَمُوا الأَعْمَالَ فَاخْتَصَّ نَفَر
 وَاخْتَصَّ بِالتَّعْلِيمِ قَوْمٌ فَارْدَهَر
 قَادَ جُيُوشَ العِلْمِ لِلنَّصْرِ الأَعْر
 وَالجَيْشُ مَحْلُولُ الرِّمَامِ مُنْتَبِر
 وَلَمْ يُفِدْهُ فِي المَلَا بَعْدُ نَظَر
 مُحَنِّكَ طَوَى الرِّمَانَ وَتَشَرَ
 تَنَاسَقَ كَالرِّطِّطِ مَا بَيْنَ السُّور
 وَالجَيْشُ أَشْبَالُ لَيُومٍ يَنْتَظَر
 صُنْعُ مِنَ اللهِ العَزِيزِ المِقْتَدِر
 وَأَرْكَبَ جَوَادَ الحَزْمِ فَالْأَمْرُ حَظَر
 عَفَّ الحُطَى عَفَّ اللِّسَانِ وَالفِكْر

(74) الخلة بضم الخاء: الصديق. وتكون بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع. جلى: سبق، والفرس المجلي هو

السابق في الميدان. (الآثار).

(75) الندب: السريع إلى الفضائل. (الآثار).

(76) الهوينى: التؤدة والرفق. (الآثار).

تَجْمَعُنِي بِكَ خِلَالٌ وَسِيرٌ
 وَلَيْسَ فِيهَا تَاجِرٌ وَمَا تَجَرٌ
 وَمَا تَقَارُضٌ⁽⁷⁸⁾ التَّنَا فِينَا يُفَرِّ
 فَلَا أَقُولُ فِي أَحْيَى لَيْثٌ خَطَرٌ
 وَإِنَّمَا هِيَ عِظَاتٌ وَعَبِيرٌ
 وَبَيْنَنَا أَسْبَابٌ نُصْحٌ تُدَكِّرُ
 لَا تَنْسَ (حَوًّا) إِنَّهَا أُخْتُ الذَّكَرِ
 تُثْمِرُ مَا يُثْمِرُ مِنْ حُلُوٍّ وَوُزْ
 وَكُلُّ مَا تَصْعُغُهُ فِيهَا اسْتَقَرُّ
 مَزِيدَةٌ عَلَى الْحَوَاشِي وَالطَّرِزُ⁽⁷⁹⁾
 تُرْضِعُهُ أَخْلَاقَهَا مَعَ الدَّرْرِ⁽⁸⁰⁾
 كَانَ الْبَلَاءُ كَانَ الْفَنَاءُ كَانَ الضَّرُّ
 أَوْلَا فَوَزُّ⁽⁸¹⁾ جَالِبٌ سُوءِ الْأَثْرِ
 لَمْ تَأْتِ فِيهِ آيَةٌ وَلَا خَبْرٌ
 هُنَّ فِي الْعِرْفَانِ وَرْدٌ⁽⁸²⁾ وَصَدْرٌ
 مِنْ أُمَّةٍ قَدْ شَلَّ نِصْفَهَا الْحَدْرُ
 وَخُذْ مِنَ الدَّهْرِ بَحَارِيْبَ الْعَبِيرِ
 فِيمَا مَضَى مِنَ الْقُرُونِ وَحَضَرَ
 تَارِيخَهَا إِلَّا بِأَنْتَئِي وَدَكَّرْ؟
 فَقُلْ لَهُ هِيَ مَعَ الْجَهْلِ أَشَرُّ

*** وَعَايَةَ الْجَمْعِ الْمَفِيدِ فِي الْحَضَرِ
 *** مَا اجْتَمَعَتْ إِلَّا نَوَى الْخَيْرِ وَقَرَّ⁽⁷⁷⁾
 *** وَلَيْسَ مِنْهَا مَا بَعَى الْبَاغِي وَحَرِ
 *** إِنَّ فُضُولَ الْقَوْلِ جِزءٌ مِنْ سَقَرِ
 *** وَلَا يُفْوَلُ إِنِّي عَيْثُ قَطَرِ
 *** عَرَفْتُ مَبْدَاهَا فَهَلْ تَمَّ الْحَبْرِ
 *** كَيْتَمَانُهَا عَبْنٌ وَغِشٌّ وَضَرَرِ
 *** تَحْمِلُ مَا يَحْمِلُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرِ
 *** وَكَيْفَ مَا تَكْوَوْتُ كَانَ الثَّمَرِ
 *** فَكَيْفَ يَرْضَى عَاقِلٌ أَنْ تَسْتَمِرِ
 *** تَزْرَعُ فِي النَّشْءِ أَفَانِينَ الْحَوْرِ
 *** وَإِنَّهَا إِنْ أَهْمَلْتَ كَانَ الْخَطَرِ
 *** وَإِنَّهَا إِنْ عَلِمْتَ كَانَتْ وَرَرِ
 *** وَمَنْعَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالنَّظَرِ
 *** وَالْفُضْلِيَّاتِ مِنْ نِسَا صَدْرِ غَبْرِ
 *** وَأَنْظُرْ هَذَاكَ اللَّهُ مَاذَا يُنْتَظَرِ
 *** وَأَنْظُرْ فَقَدْ يَهْدِيكَ لِلْخَيْرِ النَّظَرِ
 *** هَلْ أُمَّةٌ مِنَ الْجَمَاهِيرِ الْكُبَرِ
 *** خَطَّتْ مِنَ الْمَجْدِ وَمِنْ حُسْنِ السَّيْرِ
 *** وَمَنْ يُقَلِّ فِي عِلْمِهَا عَيٌّْ وَشَرِ

(77) نوى: أقام. قر: ثبت. (الآثار).

(78) التقارض: التبادل. (الآثار).

(79) الطرز، ج. طرة: وهي طرف الشيء وحاشيته. (الآثار).

(80) الدرر، ج. درة بالكسر وهي اللبن. (الآثار).

(81) الوزر: الملحأ. الوزر: الإثم. الحمل الثقيل. (الآثار).

(82) غير: مضى. الورد: الذهب إلى الماء. الصدر: الرجوع عنه. (الآثار).

وَأَنَّ تَيَّارَ الزَّمَانِ الْمُنْحَدِرِ	***	وَلَا يَكُونُ الصَّفْوُ إِلَّا عَنِ كَدَرٍ
فَاخْدَرُ وَسَابِقُ فَعَسَى يُجِدِي الْخَدْرُ	***	لِحَارِفٍ كُلِّ بِنَاءٍ مُشْمَخِرٍ ⁽⁸³⁾
تَدَسَّسَتْ لِلْعُرْفَاتِ وَالْحَجَرِ	***	وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمُنْكَرَاتِ وَالْغَيْرِ
مِنْ مِصْرَ وَالشَّامِ وَمِنْ شَطِّ هَجَرَ ⁽⁸⁴⁾		
إِنْ لَمْ يَكُنْ عَنَّا فَعَنْ قَوْمِ أُخْرٍ	***	وَأَنَّهَا قَارِئَةٌ وَلَا مَفْرٍ
مَنْ قَالَ قَدَمًا (بِيَدِي ثُمَّ انْتَحَرَ) ⁽⁸⁵⁾	***	وَأَذْكَرُ فَنِي الذُّكْرَى إِلَى الْعَقْلِ مَرٍ
صَبِيَّةٌ تَأْمَنُ بَوَائِقَ الضَّرِّ	***	حُطَّهَا بِعِلْمِ الدِّينِ وَالْخَلْقِ الْأَبْرِّ
عَافَ الزَّوْجَ بِإِنْسَةِ الْعَمِّ الْأَعْرِّ	***	وَاعْلَمْ بِأَنَّ نَشَانَنَا إِذَا كَبِرِ
لِأَنَّهَا فِي رَأْيِهِ مِثْلُ الْحَجْرِ	***	يَهْجُرُهَا بَعْدَ عَدٍ فِيمَنْ هَجَرَ
لِأَنَّهَا قَارِئَةٌ مِثْلُ الْبَشْرِ	***	وَيَصْطَفِي قَرِينَةً مِنَ الْعَجْرِ ⁽⁸⁶⁾
مِنْ صَاحِبِ رَاذٍ ⁽⁸⁷⁾ الْأُمُورِ وَخَبْرِ	***	خُذَهَا إِلَيْكَ ذُرَّةً مِنَ الدَّرِّ
نَسْبُتُهَا الْبَدُوَ وَسُكَّنَاهَا الْحَضْرَ	***	صَمِيمَةً فِي الْمُنْجَبَاتِ ⁽⁸⁸⁾ مِنْ مُضَرِّ

⁽⁸³⁾ المشمخر: العالي... (الآثار).

(84) قال عياض: " (هجر) مَدِينَةٌ مَشْهُورَةٌ بِالْيَمَنِ وَهِيَ قَاعِدَةُ الْبَحْرَيْنِ يُفْتَحُ الْهَاءُ وَالْجِيمُ ... وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَحْرَيْنِ عَشْرَ مَرَاكِلٍ ". مشارق الأنوار على صحاح الآثار، عياض: (2/ 275)؛ يستعملها الأدباء للدلالة على مدى البعد المكاني نحو المشرق العربي.

⁽⁸⁵⁾ بيدي ثم انتحر: يشير إلى مثل مشهور أرسلته الزُّبَّاءُ. وخلصه قصته أن الزباء قتلت جذيمة الأبرش خال عمرو. فذبر وزيرُ جذيمة (واسمه قصير) مكيدةً لأخذ الثأر منها. فجدع قصيرُ أنفه وذهب إليها باكيًا مدعياً أن عمراً جدع أنفه. فصدقته ومكث عندها مدة. ثم أتى بالرجال ومعهم عمرو ليقتلوها. وكان لها نَفَقٌ أعدته لوقت الحاجة. فلما أرادت أنْ تهرب من النفق وجدتْ عمراً على بابه. فمصّت خائماً مسموماً كان بيدها وقالت: (بيدي لا بيد عمرو) ... (الآثار)

⁽⁸⁶⁾ جمع غجري و غجرية، وهم " قوم حفاة متحولون، منتشرون في جميع القارات، يتمسكون بتقاليدهم الخاصة، يعتمدون في معاشهم على التجارة، أو عزف الموسيقى وقراءة البخت، أو الاحتيال والتسول، أو بعض الصناعات الخفيفة. " معجم اللغة العربية المعاصرة (2/ 1595)، وتنسب نساؤهم في الغالب إلى الفجور. ينظر تكملة المعاجم العربية (7/ 384).

⁽⁸⁷⁾ راز من الفعل (روز)، قال في اللسان: " الرَّؤُوفُ التَّجْرِبَةُ رَاذُهُ يَرُوزُهُ رَوْزًا جَرَّبَ مَا عِنْدَهُ وَخَبَّرَهُ، ... قَالَ أَبُو عبيدة يُقَالُ رَاذَ الرَّجُلُ صَنَعْتَهُ إِذَا قَامَ عَلَيْهَا وَأَصْلُهَا " لسان العرب، ابن منظور: (3/ 1774 - 1775).

⁽⁸⁸⁾ جمع مُنْجَبَةٌ: وهي التي تلد أولادا لهم شرف وشأن، وكانت العرب تفتخر بالأمهات المنجبات، قال في المجموع اللغيفي (ص 513) " ولم تكن العرب تُعَدُّ منجبة لها أقل من ثلاثة بنين أشرف ".

خاتمة:

وإنّ الذي يتتبع صنيع الإمامين في تناول موضوع تعليم المرأة ليقن باشتراكهما في الكرع من النبع نفسه، ورمابتهما في الهدف نفسه، على خلاف طفيف في التعبير عن مسأله، بيانا وأسلوبا.

وإنّ الذي يتتبع كلامهما ليدرك بأنّ ما نعانیه اليوم بخصوص تعليم المرأة - وإن كان أقلّ حدّة - له الجذور الفكرية نفسها، التي قاومها الإمامان.

ولقد كان للكلمات التي أطلقها الإمامان بخصوص تعليم المرأة أثره الطيب في إيجاد جيل ثورة التحرير، وما أحوجنا إلى أعمال آرائهما وإكمال بنائهما لأجل إيجاد جيل البناء الحضاري الذي يليق بهذه الأمة وتاريخها.

حقيق بنا في ذيل هذه الورقات وخاتمتها أن نؤكد بأنّها لا تزال مقصّرة تقصيرا شديدا بخصوص تقديم تجارب تعليمية عملية تعوّض على بنات الأمة ما فاتهنّ، وقد طال بنا الركون إلى مُفرزات الفكر الغربي والبقاء عالية على منتجاته، نتكفّف عنهم طرق التعليم وأساليب التربية، ومحاولة حشر أجسادنا في ألبسة وضعت على غير مقاساتنا، ولا زلنا ندفع ثمن ذلك غربة قاتلة نعيشها بين ظهرانينا، ... وأظنها مسألة فكر غفلة عن إدراك خصوصياتنا الثقافية وإرثنا الحضاري، قبل أن تكون نتيجة فقر وضعف مادّي.

ولنا أن نتساءل في هذه الخاتمة فنقول: ما الذي يمنع ذوي الفكر وذوي القدرة المادية من الإمساك بزمام المبادرة، واستغلال أي موطئ قدم لتقديم جزء من النموذج البديل الذي نرقبه منذ أمد طويل؟!

ولنا أن نقرر في هذا المقام بعض الحقائق والمنطلقات فنقول:

1- لم يكن الخلل يوما في التعاليم الإسلامية، وإنما هو في فهمنا السقيم للدّين، أو في خلطنا بينها وبين أعرافنا الفاسدة.

2- إن وضع المرأة في مجتمعنا يمثل جزءا من الصورة العامّة فيه، وإنّ تدهور حالها من تدهور حاله، وتطورها من تطوره.

- 3- إنّ للجميع يداً فيما آل إليه أمر المرأة عندنا من جهل وأمّية، ويتحمّل الاستعمار الغربي من ذلك القسط الأوفر.
- 4- إنّ المرأة مطالبة بالمساهمة في التعلّم وتسوية أمرها والمشاركة في تنمية مجتمعتها، مثلها مثل أخيها الرجل.
- 5- إنّ العالم الغربي يأتينا منه حسييس المكائد، وليس نفائس الحلول ونفيس الفوائد، لأنّه طرف منافس، وليس حميما مخالصا.
- 6- إنّ وضع المرأة الغربية السيء جدا يفضح دعاوى امتلاكهم العلاج لقضايا المرأة المعاصرة، وإن الكييس الفطن من اعتبر بمن سبقه فيما ينوي الإقدام عليه، فلا يتداوى بما وُصف لعلّه غيره، وما أفلح.
- 7- إنّ خطورة الموضوع تقتضي منا مزيد عناية بالمرأة وتعليمها، قبل أن يتفاقم الوضع ويتسع الخرق على الرّاقع.
- 8- وإنّ توجيه الرجل والمرأة إلى التكامل أولى من دفعهما إلى المنافسة والمشاكسة، بدعوى المساواة الفارغة.

المصادر والمراجع:

1. آثار ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت1359هـ)، تح: د. عمار طالي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط1/ (1388 هـ - 1968).
2. آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي (ت1385هـ)، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1/ 1997.
3. الأعمال الشعرية الكاملة (الشوقيات)، أحمد شوقي، ط1، دار العودة / بيروت، 1988م.
4. تعليم الإناث وتربيتهن، د. تقيّ الدّين الهلالي (مقال): مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الثامن.
5. تفسير ابن باديس (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (ت1359هـ)، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1/ 1416 هـ - 1995م.
6. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1/ 1422هـ.
7. ديوان معروف الرصافي، مراجعة مصطفى الغلاييني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة/ مصر 2014م.

8. السلسلة الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف- الرياض- السعودية، ط1/ 1412-1992.
9. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، وعليه تعليقات كمال يوسف الخوت، والأحاديث مزيلة بأحكام الألباني عليها.
10. الشيخ محمد بن إبراهيم عالم الديار السعودية وفقهها (1311- 1389 هـ) (مقال)، د. محمد بن سعد الشويعر، مجلة البحوث الإسلامية- مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: مج51.
11. لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.
12. مجالس التذكير من حديث البشير النذير، عبد الحميد محمد بن باديس (ت 1359هـ)، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1، 1403هـ - 1983م.
13. المجموع اللبيب، أمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله العلوي الحسيني أبو جعفر الأفطسي الطرابلسي (ت بعد 515هـ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1425 هـ .
14. المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، وعليه تعليقات الذهبي، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1/ 1411 - 1990.
15. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي، السبتي، أبو الفضل (ت 544هـ)، المكتبة العتيقة ودار التراث، (د.ت).
16. ملامح يونانية في الأدب العربي، إحسان عباس، ط1/ 1977، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت: ص137.
17. هاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تح: مفيد قمحية وجماعة دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ج33 ط1- 1424 هـ - 2004 م.
18. نيل الأوطار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني، تح: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث مصر، ط1/ 1993-1413.